﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التَّوبة: 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيّنَ ﷻ في الآية السّابقة وجوبَ الانْقطاعِ عنِ المشركين الأحياءِ والأمواتِ، بيّنَ في هذه الآية أنّ هذا الحُكمَ غيرُ مختصٍّ بدينِ محمّد ﷺ، بل وجوبُ الانقطاع مشروعٌ أيضًا في دينِ إبراهيمَ عليه السلام، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وجوبِ المقاطعةِ أكملَ وأقوَى[1].

البراءةُ من المشركين شرعُ الله لكلِّ الأنبياءِ والمرسَلين

وقد جاءت هذه الآيةُ عَقِبَ الآيةِ السّابقةِ لشدّةِ التّعلّقِ بينَهما من ناحيةِ استغفارِ النّبيّ ﷺ لعمّه أبي طالبٍ، ولعلّه وجدَ أُسوةً في ذلك في فعلِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه، فأخبرَه الله تعالى أنَّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان وعْدًا قبْلَ أن يتبَيّن الكُفرُ منه، فلمّا تبيّنَ له منه الكُفرُ تبرّأ منه[2].

مجيئُها كان لدفعِ توهُّمٍ قائمٍ في النّفوسِ

وكذلك جاءتِ الآيةُ لدفعِ توهُّمٍ يردُ في خاطرِ أصحابِه رضي الله عنهم أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا ﷺ من بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه[3]، فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ - وهو إيجابُ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم - غيرُ مُختَصٍّ بدينِ مُحمَّدٍ ﷺ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السلام، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ مِنَ الكفَّارِ أقوَى[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَبِيهِ﴾: الأَبُ: الوَالِدُ، والأُبُو: الغُدُو، والأَبَوَانِ: الأَبُ والأُمُّ، ويُطلق الأب أيضًا على الجدِّ والعمّ وعَلى صَاحب الشَّيْء وعَلى مَنْ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/222.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/3114.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.

كَانَ سَببًا في إيجَاد شَيْء أَو ظُهُوره أَو إِصْلَاحه[1]، وَفي التَّنْزِيل العَزِيز: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: 38][2]، وأصلُه: أَبَوٌ، حُذفت لامُه والمصدرُ: الأُبُوّة، وهو أحدُ المصادرِ الّتي أُخذتْ منَ الأسماء، ومثلُها: النُّبوَّةُ، والفُتوَّةُ، والأُخوَّة[3].

2) ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾: العِدَة والوَعْدُ[4]، يُقال: وعدتُّ زيدًا إذا كان الوعدُ منك خاصَّة، وواعدتُّ زيدًا إذا وعدَك ووعدتَّه، وأصلُ (وعدَ) يَدُلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقال: وعدتُّه أعدُه وعْدًا[5]، والمَوْعِدُ مصدرُ وعدْتُّه، ويكونُ الموعدُ وقتًا لِلعِدَة، والميعادُ: لا يكونُ إلّا وقتًا أو موضعًا، وَالوعْدُ: ما يُقطعُ من عهْدٍ في الخير والشَّرّ، وهو التزامٌ باحترام عهْدٍ والتَّقيُّدِ به بأمانةٍ[6]، والوعدُ هُنا هو استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ ما دامَ حيًّا، فلمَّا مات مُشركًا تَبَرَّأَ منه[7].

3) ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفَقًا وفَرَقًا[8]، وهو الّذي يُكثرُ من قولِه: آه آه[9]، فهو كلُّ كلام يظهرُ منه تحزّنٌ كثيرٌ وتضرُّعٌ ودعاءٌ للّه، وكلُّ كلام يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: تَأَوُّهٌ[10]، فالمعنى هنا: كثيرُ التَّأوُّهِ من خوفِ اللّه[11]، ويُعبّرُ بالأوّاه عمّن يُظهرُ خَشيتَه للّه تعالى.

4) ﴿حَلِيمٌ﴾: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبرُ على الأذَى، والحِلمُ: ضبطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هيجانِ الغضبِ، وجَمْعُهُ: أحلام، وهو خلافُ الطَّيْشِ، يُقال: حَلُمْتُ عنه أحلُمُ، فأنا حليمٌ، وأصلُ (حلُمَ): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ، وهو أيضًا الأناةُ والسُّكونُ معَ القُدرةِ والقُوَّة[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ طَلَبَ إبراهيمَ المغفرةَ لأبيه بقولِه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (أبو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أبي).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (أبو).
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 11/7217، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب، ومُرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (وعد)، وابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 156.
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/274.
(8) سلمة الصُحاريُّ، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 2/134.
(9) السَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (أوه).
(10) الرّاغب، المفردات: (أوه)، وابن جرير، جامع البيان: 12/34، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 62.
(11) النَّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/418.
(12) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 18، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/276، والكفويُّ، الكليّات، ص: 404.

﴿كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بمعنى: وفِّقه للإسلام؛ ما كان إلا بَسَبب وَعْدِه إيَّاه كما في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]، فلمَّا اتَّضحَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ للّه بإصراره على الشِّرك حتّى ماتَ عليه، تَرَكَهُ وتركَ الاستغفارَ له، مع أنَّ إبراهيمَ ﷺ كثيرُ التَّضرّعِ إلى اللّه، كثيرُ الصَّفحِ والتَّجاوُزِ عمَّا يصدرُ من قومِه منَ الزَّلات[1]، ومع ذلك منعَه اللّه منَ الاستغفار لأبيه الكافرِ، فمنعُ غيرِه أولَى.

براءةُ إبراهيمَ ﷺ منَ الاستغفار لأبيهِ بعد ثُبُوتِ مَوتِه علَى الشِّرك

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ استئنافيّةٌ مَسوقةٌ لتقريرِ ما سبقَ ودفْعِ ما يتراءَى بحسبِ الظّاهرِ منَ المخالفةِ، وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لبيان أنّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان له ظرْفُه الخاصُّ، وإلّا فإنّه لا يجوزُ الاستغفارُ للمُشركين عُمومًا.

بيانُ عُذرِ إبراهيمَ ﷺ في الاستغفارِ لأبيه

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿ٱسْتِغْفَارُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالاستغفار بصيغةِ المصدرِ، للدّلالةِ من ناحيةٍ على دوامِ استغفارِ إبراهيمَ لأبيه، وأنّه كان حريصًا على هدايته، بخلافِ التَّعبيرِ بالفعل (أستغفرُ) كما ورد في مواطنَ أخرى، فإنّه يدلُّ على تجدُّدِ دعوةِ إبراهيمَ لأبيه للتّوحيدِ، وكلّما رفضَ جدّدَ إبراهيمُ ﷺ الاستغفارَ لأبيه، أمّا هنا فهو ليس حديثًا عن تجدُّدِ الفعْلِ، بل هو وصفٌ للحالةِ الّتى كان عليها إبراهيمُ في علاقتِه بأبيه، ومن ناحيةٍ أخرَى فإنّ الإتيانَ بالمصدرِ في معرضِ النّهي يدلُّ على شدّةِ تحريمِ الاستغفارِ للمشركين، وأنّه لا يجوزُ أن يكونَ جنسُ هذا الاستغفار واردًا بحقّهم.

بيانُ حرْصِ إبراهيمَ على الاستغفارِ لأبيه ورجائِه أن يموتَ على الإيمانِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآن الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

تَـعـدّدُ المعـاني في لفظِ (الأبـوّة) دونَ الوالد

تعدّدتْ أقوالُ العلماءِ في المرادِ منَ الأب، هل هو والدُ إبراهيمَ المباشرُ أمْ عمُّه، على قولَيْن مشهورَيْن لأهل العلم، ولكلٍّ دليلُه، فالأبُ يُطلقُ على الوالدِ المباشرِ ويُطلقُ على الجَدِّ أو العمِّ، وممّا يؤكدُ ذلك أنّه أُطْلِقَ في القُرآن على الجدِّ وإن علا كقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38]، فيعقوبُ هو الوالدُ، وإسحاقُ هو الجدُّ، وإبراهيمُ هو والدُ الجدِّ، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيدِ، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78] ويُطلقُ أيضًا على العمِّ كقول أبناءِ يعقوبَ ليعقوبَ عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، ومعلومٌ أنّ إسماعيلَ عليه السلام هو عمُّ الأبِ المباشرُ ليعقوبَ عليه السلام، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ الشَّاملُ لمعاني التَّفسيرِ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ هذه المعاني، والظّاهرُ في استعمالِ كلمةِ (الأب) هنا أنّه يُرادُ به الأبُ المباشرُ إلّا إن قامت قرينةٌ على خلاف ذلك، ولا قرينةَ صارفةٌ هنا عن إرادةِ الأبِ الحقيقيِّ، بل إنّ هذا الدّوامَ على الاستغفارِ يدلُّ على شدّة قُربِه منه، لا سيّما أيضًا ورودُ هذا الحديثِ عنِ استغفارِ إبراهيمَ لأبيه في معرضِ النّهيِ عنِ الاستغفارِ للمشركين مهما كانتِ الصّلةُ بهم.

دلالةُ الإضَافةِ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

احـتـرامُ القـرآن للأبـوّة ولـو كـان الأب كافرًا

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾ مع أنّه كافرٌ على أنَّ الإسلامَ يحترمُ الأبوّةَ معَ اختلافِ الدِّين، فإبراهيمُ أبُو الأنبياءِ كان حنيفًا مُسلمًا، وأبوه كافرٌ، وهذا يُدلّلُ على أنّ حقوقَ الأبوّةِ لا تسقطُ بالكُفرِ، يؤكّدُ ذلك ما ذكرَه القرآنُ الكريمُ في سُورةِ لقمانَ عنِ الإحسانِ إلى الوالدَيْن بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: 15]،

فأُمر الابنُ بصُحبةِ والدَيْه المشركَيْن بالمعروفِ، بل في هذا السّياقِ ظلَّ إبراهيمُ ﷺ يَستغفرُ لأبيه أملاً في هدايتِه، إلى أن تبيّنَ عداوتَه للّه ربِّ العالمين.

بلاغةُ القصْرِ في الاستثناء بعد النّفْي وغرَضُه ونوعُه:

لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلّا بسببِ ما سلفَ منَ الموعدة

﴿إِلَّا﴾ أداةُ حصْرٍ، و﴿عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ خبرُ كان، والاستثناءُ هُنا مُفرَّغ من أعمِّ العِلَلِ، فهو من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، لأنّ لهذا الاستغفارِ مقاصدَ أخرى، ويمكنُ أن يكونَ قصْرَ قَلْبٍ بحسبِ ظنِّ المخاطَبين، أي: لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه ناشئًا عن شيءٍ منَ الأشياءِ إلَّا عن موعدةٍ وعدَها إيّاه، أي: لأجْلِها[1]، ولذلك استغفرَ له عمَّا سَلَفَ منه إذا هو آمنَ[2]، فلا حُجَّةَ أيّها المؤمنون في استغفارِ إبراهيمَ ﷺ، فإنّ ذلك لم يكنْ إلّا عن موعدةٍ[3].

سِرُّ التَّعبير بالموعدةِ:

المـوعـدةُ تـدلُّ عـلى الـحـدثِ المتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالِبِ

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: آثرَ التَّعبيرَ بالمَوْعِدةِ دونَ الوعْدِ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالوعدُ مصدرٌ دالٌّ على الحدثِ، بخلافِ المَوعِدة فإنّها تدلُّ على الحدَثِ المُتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالبِ، وهذا ما يتناسبُ مع سياقِ الآيةِ في فِعْلةِ إبراهيمَ ﷺ مع أبيه، حيث تلبَّسَ بهذه الموعدَةِ إلى أن تبيَّنَ له أنّه عدوٌّ للّه فتبرّأَ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾:

الجملةُ تحتملُ صُـدورَ المـوعِـدَةِ منَ الطَّرفَيْن

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، للدّلالةِ على احتمالِ تعدُّدِ محَلِّ صُدورِ هذا الوعد، وبناءً على هذا فقد ذهبَ العلماءُ في محلّ صُدورِ الموعدةِ مذهبَيْن: الأوّلُ: أن يكونَ الواعدُ أبَا إبراهيم ﷺ، والمعنى: أنّ أباه وعدَه أن يُؤمنَ، فكان إبراهيمُ ﷺ يَستغفرُ له

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/491.
(3) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/222.

لأجلِ أن يحصلَ هذا المعنى، فلمّا تبيّن له أنّه لا يؤمنُ وأنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه، وتركَ ذلك الاستغفارَ. الثّاني: أن يكون الواعدُ إبراهيمَ ﷺ، وذلك أنّه وعدَ أباه أن يستغفرَ له رجاءَ إسلامه، فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه، والدّليلُ على صحّةِ هذا التأويلِ قراءةُ الحسنِ: (وعدها أباه) بالباء[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا﴾:

مُبادرةُ إبراهيمَ ﷺ بالبَراءةِ من أبيه بمجرَّدِ التّبيُّنِ

آثرَ التّعبيرَ بالفاء، لأنّها عطفتْ هذه الجملةَ على مقدَّرٍ يَستدعيه الكلامُ وحُذفَ لظُهورِه، والمعنى: لم يزلْ إبراهيمُ يستغفرُ لأبيه حتّى مات، فلمّا مات وتبيَّن له أنّه عدوٌّ لله بادرَ بإعلان البراءةِ منه.

ويضافُ إلى ذلك الدّلالةُ على سُرعةِ الامتثالِ من إبراهيمَ ﷺ في إظهارِ البراءةِ ممّن ماتَ على الشّركِ، ولو كان أبًا له كما تَقدّمَ في الآيةِ.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقِ التّبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

تعدُّدُ طُرقِ التّبيُّنِ المُوجِبِ للبَراءَةِ

حُذف مُتعلّقُ التّبيّن للدّلالةِ على تعدُّد طرق التّبيّن، فقد قيل: تبيّنَ له ذلك بوحْيٍ منَ الله؛ فتبرَّأ منه ومن قرابته، وتركَ الاستغفارَ له، أو بإصرار أبيه على الشّركِ والموتِ عليه، أو بالإصرار وحدَه أو بمُقتضَى الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: 22][2]، وفيه تأكيدٌ لوجوبِ الاجتنابِ بعدَ التَّبيّن[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالتّبيّن: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

ليسَ بينَ المؤمنِ واتّباعِ الحَقِّ إلا مَعرفتُه والتّحقّقُ منه

آثرَ التّعبيرَ بالتّبيّن دونَ غيرِه، لأنّه يدلُّ بصيغتِه على تأكُّدِه من موقفِ أبيه وحسْمِ الأمرِ معَه بعدَ أن يقفَ علَى الدّليلِ، فلمّا تأكّدَ كفرُه وثبَتَ الأمرُ عندَه تبرّأ منه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/37.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/515.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ على رسوخ أبي إبراهيم في أمر العداوة لله تعالى، لأنّه عدُوٌّ لله أصْلاً، والمرادُ أنه مُستمرٌّ على عداوته لله تعالى وعدمِ الإيمان به حتى هلَكَ.

شدّةُ رسوخِ المشركين في العداوة وإصرارِهم عليها

دلالةُ التّأكيدِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

دلَّ التّأكيدُ الواردُ في صدْرِ الجملةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ على أنّ أبا إبراهيم كان مُصرًّا على الكُفرِ[1]، مطبوعًا على قلبه، مختومًا بختامِ الجهلِ والغفلةِ[2]، فضلًا عن أنّ التّأكيدَ بـ(أنّ) والجملةِ الاسميّةِ أفادَا أنّ إبراهيمَ عليه السلام وصلَ إلى هذه القناعةِ بعد قيامِ الأدلّةِ وثبوتِ البراهينِ لديه بعداوة أبيه لله تعالى.

إصرارُ أهلِ الشّركِ على عداوتِهم لله تعالى رُغمَ ظُهورِ الأدلّةِ والبيّناتِ

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الشّركِ بالعداوةِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بوصْفِ العداوةِ دونَ الشّرك، لأنّ أبَا إبراهيم عليه السلام كان يصنعُ الأصنامَ وكانَ مُتزعّمًا في قومِه لرفض دعوةِ إبراهيمَ، فلم يقفْ أمرُه عندَ الشّركِ أو الكُفرِ، بل تزعّمَ العداوةَ والمواجهةَ مع قومِه ضدَّ إبراهيمَ عليه السلام، وللتّأكيدِ على أنّ مَنْ يُشركْ باللّه فكأنّما أعلنَ حربًا على اللّه وأصبحَ عدُوًّا له.

أشدُّ المشركين كفرًا مَنْ يُناصبُ اللهَ العداوةَ ويتزعّمُ الدّعوةَ إلى الشّركِ

غرض إسناد العداوة للفظ الجلالة:

أسند العداوةَ إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ لتَبْشيعِها وتفْظيعِها، وفي هذا بيانُ سببِ إعلانِ إبراهيمَ عليه السلام البراءةَ من أبيه، وفيه تحذيرٌ لكلّ مُشركٍ أو كافرٍ يبقَى على شِركِه أو كُفرِه بعد توجيهِ الدّعوةِ إليه على لسانِ النّبيّ ﷺ بأنّه عدوٌّ للّه.

أقبحُ العَداواتِ وأشنعُها أن تُعاديَ خالقَكَ ومَنْ أمرُكَ بيدِه في الدّنيا والآخرةِ

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَبَرَّأَ﴾، لأنَّ التَّبرُّؤَ تَفَعُّلٌ من بَرِئَ من كذا:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/33.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/320.

إذا تَنزَّه عنه، فالتَّبرُّؤُ مُبالغةٌ في البَراءةِ[1]، أي: فلمَّا تَبَيَّن لإبراهيمَ أنَّ أباه مُصِرٌّ على الكُفرِ ومُسْتَمِرٌّ عليه، تبرَّأ منه بالكليَّةِ فضلًا عنِ الاستغفار له.

بيانُ المبالَغةِ في البَراءةِ

وفيه دلالةٌ على أنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ أنّه أكْرَه نفسَه ﷺ على البَراءةِ من أبيه، ثمّ علّلَ اللّه تعالى ما دلَّت عليه هذه الصّيغةُ منَ المعالجةِ بقولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ:

وُجوبُ البَراءةِ الكاملةِ منَ المشركين

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ، لأنّها أعمُّ، فالبَراءةُ منَ الشّيءِ تَستلزمُ البَراءةَ من جميع أحوالِه، وبذلك يندرجُ قطعُ الاستغفارِ تحت البَراءةِ.

بلاغةُ الفصْلِ:

كمالُ أخلاقِ إبراهيمَ ﷺ وثَناءُ الله عليه

فَصلَ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، لأنّه اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان الدَّاعِي الّذي دعا إبراهيمَ إلى الاستغفار لأبيه قبل التَّبيُّن، فكأنَّ سائلًا سأل: ما هو الدّاعِي إلى استغفارِ إبراهيمَ لأبيه والموعدةِ الّتي وعدَها إيَّاه؟، فجاءَ الجوابُ: إنَّ إبراهيمَ لَكثيرُ التَّأوّهِ والتَّوجّعِ من خَشية اللّه، وكثيرُ الحِلْم والصَّفحِ عمّن آذاه[2]، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ اللّه سبحانه لإبراهيمَ ﷺ والثّناءِ عليه.

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ بالأوّاه:

خوفُ إبراهيمَ ﷺ من ربِّه وشفقَتُه على خلْقِه

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ دون غيرِه، لأنّ لفظ (أوّاه) يُطلقُ على معانٍ متعدّدةٍ كلُّها تخدمُ سياقَ الآيةِ في موقفِ إبراهيمَ ﷺ منَ الاستغفارِ لأبيه، فيأتي بمعنَى الخائفِ الّذي يُكثرُ التَّأوُّهَ من خوفِ اللّه ﷻ، والتَّأوُّهُ: التَّوجُّع الّذي يَكْثُرُ حتَّى ينطقَ الإنسانُ معه بـ(أوّه)[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/46.
(2) طنطاوي، الوسيط: 6/415.
(3) الثّعالبي، الجواهر الحِسان: 3/222.

ولفظُ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ مثالُ مبالغةٍ: وفُسِّرَ بمعانٍ ترجعُ إلى الشَّفقةِ إمَّا على النَّفس فتفيدُ الضَّراعةَ إلى الله والاستغفارِ، وإمَّا على النَّاس فتفيدُ الرَّحمةَ بهم والدُّعاءَ لهم، وهو اسمُ فعلٍ مضارعٍ بمعنى: أتوجَّع، لإنشاءِ التَّوجُّع[1]، ويُطلقُ بمعنى الدَّعاءِ، والمُوقنِ، والفقيهِ، والمُسبّحِ الّذي يُسبّحُ الله في الأرض المُوحشةِ، وكلُّ هذه المعاني مُتحقّقةٌ في إبراهيمَ عليه السلام، وهناك سببٌ نفسيٌّ في اختيارِ هذا اللّفظِ، وذلك أنَّ الإنسانَ عندما يصابُ بالحُزنِ يختنقُ الرّوحُ القَلبيُّ في داخل القلبِ ويشتدُّ حرقُه، فالإنسانُ يُخرج ذلك النَّفَسَ المحترقَ منَ القلبِ ليُخفِّفَ بعضَ ما به في نُطقه بهذا اللّفظِ (أَوّه)[2].

فائدةُ صيغَتَي المبالغةِ: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بصيغِ المبالغةِ على شدّةِ رِقّةِ القلْبِ عند إبراهيمَ عليه السلام وتضرُّعِه في دعائِه لربّه، ودلَّ ذلك أيضًا على شدّةِ التَّحمّلِ والإغضاءِ عنِ المؤذِي له، هكذا خُلُقُهُ في حدِّ ذاته فكيف في حقِّ أبيه؟ ولو قال له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى﴾ [مريم: 46] وأضعافَ ذلك[3].

بيانُ شِدَّةِ رحمةِ إبراهيمَ عليه السلام ورأفتِه في نفسِه ومعَ غيرِه

سِرُّ تقديمِ (الأَوَّاه) على (الحَلِيم):

قدَّمَ صفةَ الأوّاهِ لما تحملُه من معانٍ تهيِّئُه للصّبرِ ولتَحمّلِ المصاعبِ النّاتجةِ في موقفِه من أبيه، وأيضًا لأنَّ التّأوّهَ صفةُ القلبِ، والحلْمُ صفةُ العقلِ، والقلبُ هنا مُقدّمٌ على العقلِ، لأنّه محلُّ العقلِ، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

شِدّةُ التّأوّهِ بابُ الوُصولِ إلى الحِلْمِ

سِرُّ ختمِ الآيةِ بهذَيْن الوصْفَيْن:

وصَفَ اللّه تعالى إبراهيمَ عليه السلام بهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ في هذا المقامِ، لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تَعظُمُ رِقَّتُه على أبيه وأولادِه، فبَيَّنَ تعالى

البراءةُ منَ المشركين لا يتنافَى معَ كمالِ رقّةِ القلْبِ والحلْمِ الواسِعِ

(1) الخفاجي، حاشية الشِّهاب: 4/648، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/409.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/31.

أنَّه مع هذا الخُلق تبَرَّأَ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أَوْلى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ، لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ[1].

وفي ختامِ الآية بهذيْن الوصْفَيْن دلالةٌ على تأكيدِ وُجوبِ الاجتِنابِ عنِ الاستغفارِ لأبيه بعدَ أن تبيّن له أنه عدوٌ للّه.

بلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيّ بين آيتَي التّوبةِ وهودٍ:

كلُّ آيةٍ جاءت متناسبةً معَ السّياقِ الّذي جاءت فِيه

اختلفَ الوصفُ بين السّورتَيْن من ناحيةِ التّقديمِ والتّأخيرِ، فذَكرَ في سورةِ التّوبة: ﴿لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، وفي سورةِ هودٍ: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ﴾ وفي سورة التّوبة اكتفَى بوصفَي الأواه الحليم، بينما في سورة هودٍ زادَ وصْفَ ﴿مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75]، والسّببُ في ذلك اختلافُ السّياقِ في كلٍّ منهما، فسياقُ سورةِ التّوبةِ جاءَ في إعلانِ براءتِه وانقطاعِه عنِ الاستغفار لأبيه بعدَ أن تبيّن أنّه عدوٌّ للّه، فالموقفُ هناك بين الابن والأبِ يظهرُ فيه حِرصٌ منَ الابنِ على هداية أبيه مع شدّةِ قَسوةٍ تظهرُ في موقفِ أبيهِ منه في رفض دعوتِه، فكان التّأوّهُ والحلْمُ هما المناسبانِ في هذا الموقفِ، أمّا في سورة هود فالأمرُ مختلفٌ، حيث يتعلّقُ بموقفِه منَ المجادلةِ في شأن قومِ لوطٍ، لأنَّ فيهم لوطًا النّبيّ ﷺ، وله به قرابةُ نسبٍ، فهو حريصٌ على نجاتِه شفقةً عليه، فعلّلَ القرآنُ الكريم هذا الموقفَ لإبراهيمَ ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75]، فذكرَ صفةَ الحلْمِ وبدأَ بها، لأنّه لا يريدُ تعجيلَ العقوبةِ، بل يريدُ إعطاءَ فُرصةٍ للعاصِين من قومِ لوطٍ ليَنخلِعُوا من معاصِيهم، فهو يُؤثرُ السّماحةَ على العقابِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/160.

وسببُ ذلك أنّه مرهفُ الإحساس، كثيرُ التّأوّهِ من شعورِه بارتكابِهم لهذه الأخطاءِ، ولذلك وصفَه القرآنُ بأنّه منيبٌ في هذا المقامِ، فهو راجعٌ إلى ربِّه تائبٌ إليه، وهي صفاتٌ كلُّها جمالٌ وكمالٌ.

وممّا يُذكرُ أيضًا في موضعِ سورةِ هودٍ، أنَّ هذه الأوصافَ جاءت مُعترضةً بين حدَثَيْن:، بِشارتِه بالولدِ ومُجادَلتِه في قومِ لوطٍ، وكلُّ حدثٍ منهما يتعلّقُ بهذه الصّفاتِ وما اشتمَلَ عليه من خُلُقٍ كريمٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوالدُ والأبُ:

الوالدُ في اللُّغة هو الأبُ المُباشرُ الّذي أنجبَ، فالوالد لا يُطلقُ إلا على مَنْ أوْلدَك من غيرِ واسطةٍ[2]، لذلك حينما يقول ﷺ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: 14] نعلمُ أنَّ كلمةَ (وَالِدَيْكَ) هُنا هُما: الأب والأمُّ[3]، أي: الأبوان المُباشران، أمَّا الأبُ فقد يكون الأبَ المُباشر، وقد يُطلق على العمِّ والجدِّ[4]، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجّ: 78][5]، فيُطلق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالد خاصٌّ، والأب عامٌّ، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجودِ الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحِه، أو ظُهورِه[6].

وممّا يُذكر في الفرقِ بينهما: أنّ الوالدَ لم يردْ مجموعًا في القُرآن الكريم، بخلافِ الأبِ، فقد وردَ مجمُوعًا كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ [البقرة: 133] الآية، وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: 38]الآية، وفي هذا دليلٌ على أنّ لفظَ الوالدِ مقصورٌ على الأبِ المباشرِ في وجود الابن دون غيره.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/1173، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3733.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) الرّاغب، المفردات: (أبا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أبى).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(6) الرّاغب، المفردات: (أبا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»